بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بقلم الدكتور سعيد الأيوبي

إن للغة العربية غنى وافراً، وأصلاً سخيّاً، وتطوراً يحمل مقدرة على الإسماح والمطاوعة لاستيعاب الحداثة ومستلزمات العصر، من مصطلحات، ونعوت، وأسماء لمخترعات، وهلمّ جراً؛ وذلك لما تفيض به من المجاز والاشتقاق والاستعارة والعدول بجميع مستوياته، والاتساع.

وإذا كان لزاماً على ولد إسماعيل قديماً اشتقاق الكلام بعضه من بعض، ووضع الأسماء للأشياء بحسب وجودها وظهورها، فإننا في هذا العصر الذي تتوالى فيه المنجزات العلمية وتخترع الآلات عدواً ودِراكاً، في أمس الحاجة أكثر من القدماء إلى أن نتقرَّى كلم اللغة العربية بإنعام نظر، ونجيل الفكر والرأي في قواعدها وأساليبها، ليتسنَّى لنا فهم سياق جملها وعباراتها.

إن اللغة العربية كنز فياض لا يزال في حاجة إلى من يكتشفه ويحسن استخدامه وتوجيهه لتحقيق الإفادة المطلوبة والغاية المأمولة. قال أبو البقاء

العكبري في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البقرة: ٢/٢٢٨]: "و ﴿قُرُوٓءٍ﴾ جمع كثرة والموضع موضع قلة، فكان الوجه: ثلاثة أقراء واختلف في تأويله" (التبيان ١/ ١٨٠ - ١٨١). وعدُّوا له أربعة أوجه:

١) أن فيه حذفاً، والتقدير: "ثلاثة أقراء من قروء".

٢) بناء عدل فيه من القلة إلى الكثرة لكونه شاذّاً في القياس.

٣) لمّا قال ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ﴾ فجمع، أتى بلفظ جمع الكثرة، لأن كل واحدة من المطلقات تتربص ثلاثة أقراء؛ وهذا الوجه رجحه الهمذاني.

٤) أن في لفظ ﴿قُرُوٓءٍ﴾ اتساعاً، قال الزمخشري: وكانوا يتسعون في الكلام "فيستعملون كل واحد من الجمعين مكان الآخر لاشتراكهما في الجمعية، ألا ترى إلى قوله: ﴿بِأَنفُسِهِنَّ﴾ وما هي إلا نفوس كثيرة" (الكشاف ١/ ٤٤٢).

إن الاتساع نمط من الإفادة وشكل تعبيري متميز يجعل المتلقي متحرِّراً من كل القيود، وينطلق في أفق عريض من الفهم والتأويلات، ويسبح في فيض زاخر من الدّلالات.

بشيء من هذا الفهم الدقيق، والدرس العلميّ الجادّ، أقبل الأستاذ محمد نور الدِّين المنجِّد على موضوع رسالته لنيل درجة الدكتوراه في موضوع: (اتساع الدلالة في الخطاب القرآني) الذي برهن فيه عن علم غزير، ودراية واسعة، وفهم سليم، وتأويل سديد، ونظر ثاقب، واستنتاج دقيق محق.

إن بحث (اتساع الدلالة في الخطاب القرآني) بحث طريف وواسع، وعى من مقومات وخصائص البحث العلمي الرصين ما يؤهله ليتربع على

القمة العالية من أهرامات الأطاريح الجامعية الجادة في هذا الزمن الماحل.

وهكذا استطاع الباحث في غير ما اعتساف، أن يجمع في بحثه هذا مادة وافرة ضافية، كانت متناثرة في كتب اللغة والنحو والصرف والبلاغة، وفي كتب التفاسير والفقه، ولملم شعثها، ورتبها في عناوين واضحة ومفيدة ودرسها دراسة مستفيضة، واستعان بالشاهد والدليل لترجيح معنى على معنى؛ كما أثبت خاصية ملازمة للخطاب العربي الفصيح هي اتساعه لمعان عديدة بألفاظ قليلة، أي دلالة الخطاب على عدة معان محتملة في تركيب لغوي واحد، يتسع فيه التأويل على قدر قوى الناظر فيه، وبحسب ما تحتمل ألفاظه بحيث لو اختل هذا التركيب لضاعت تلك المعاني أو لاحتيج إلى الإتيان بتراكيب كثيرة بعدد المعاني المعبر عنها.

ولو لم يكن لهذا البحث من فضل علمي سوى كونه جمع ما تفرق ولَمّ مشتتاً، لكان ذلك كافياً وشفيعاً، هذا فضلاً عن تدخل الباحث ويقظته وفطنته الذكية في إبداء الرأي والترجيح، والمقارنة والاستنتاج، فكان بحق باحثاً متميزاً، واعياً بقصده ومرماه في بحثه انطلاقاً ومآلاً.

بين يديك أيها القارئ الكريم سفر صالح نفيس، وإنني كما سعدت بالإشراف على إعداده مذ كان مشروعاً ومخططاً، إلى أن استوى على سوقه أطروحة جامعية كاملة متكاملة، وصحبت كاتبه ردحاً طيباً من الزمان، أجدني سعيداً أيضاً بتقديمه إليك، ففيه من النفع العميم والفائدة العلمية المرجوة ما لا يخفى.

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

المقدمة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإن القرآن العظيم كان وما يزال نبعاً فياضاً ينهل منه طلاب العلم، فلا هم يرتوون، ولا هو ينضب، ولا يخلَق على كثرة الردِّ، ولا تنقضي عجائبه، يزيدهم علماً ويقيناً كلما زادوه نظراً وفكراً.

وهو الخطاب الرباني الذي ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٌ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١/٤٢]، تكفَّل الله بحفظه من أي تحريف أو تصحيف سهواً أو عمداً، فقال في محكم كتابه: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ١٥/٩].

وهو الخطاب المعجز الذي تحدَّى الله به خلقه أن يأتوا بمثله ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا﴾ [الإسراء: ١٧/٨٨]، فصدق الله ولم يستطع أعلام البيان في عصر الفصاحة إلى ذلك سبيلاً، وإن هم عجزوا فسواهم أعجز.

وإن من جوانب الإعجاز في هذا الخطاب الإلهي ما اشتمل عليه من تفنُّنٍ في أساليب البيان، وفخامة التعبير، وكثيرة هي الكتب التي تتحدث عن جزالة لفظه، ودقة معناه، وبراعة أسلوبه، بيد أننا في حاجة إلى تلمُّس ذلك في أبحاث تخصصية تدقِّق في الجزئيات، تجمع شتاتها، وتسبر غورها، وتخرج خَبْأها.

وحين فكَّرت في اختياري موضوع البحث[1] كان شغفي بكتاب الله وخدمته يصدّني عما سواه، فوضعت القرآن العظيم أمام ناظري غاية ووسيلة، راجياً أن يكون بحثي فيه من العمل النافع للمرء بعد مماته، وأعملت - بعون الله - فكري، واستشرت أهل العلم والفضل، وكنت أرغب أن يكون موضوعي في الدكتوراه في حقل الدلالة وفقه اللغة امتداداً لتخصصي وعملي في الماجستير.

وكان أن حضرت محاضرة عامة ألقاها أ. د. فاضل صالح السامرائي في جامعة الشارقة، تحدَّث فيها عن جوانب من الإعجاز في كتاب الله، لامس فيها موضوع الاتساع في القرآن، فوقع في قلبي، ووافق هوى في نفسي، ثم سألت أ. د. السامرائي وهو الخبير: أيصلح الاتساع في القرآن موضوعاً للدكتوراه؟ فأجاب بأنه يصلح لرسائل لا لرسالة واحدة، وأن الموضوع غير مطروق فيما يعلم. فشددت الهمة وعقدت العزم، وكان أ. د. السامرائي خير معين في وضع المخطط الأولي، ولم يبخل عليَّ في نصح أو إرشاد فجزاه الله خير الجزاء.

ولعل أهمية هذا البحث تأتي من تشرُّفه بخدمة كتاب الله ولغته، والتخصُّص في جانب من جوانب بيانه الذي لا يدانيه بيان، والتدقيق في

(١) هذا البحث أطروحة دكتوراه بإشراف الأستاذ الدكتور سعيد الأيوبي، نوقشت في جامعة مولاي إسماعيل، بمكناس، في المملكة المغربية، يوم الإثنين ٨/ ١/ ٢٠٠٧، وأجيزت بميزة: (مشرف جداً).

سعة خطابه الذي يئس من مجاراته البلغاء، والتنقيب عن سرٍّ من أسرار فصاحته التي لا ترقى إليها براعة الفصحاء؛ فنرجو أن يكون لبنة نافعة تُثري المكتبة اللغوية والقرآنية فيما تناولته من فصول ومباحث.

وقد قام هذا البحث في منهجه على تتبع ما ورد في القرآن الكريم - برواية حفص عن عاصم الكوفي- من آيات تحتمل معنيين أو أكثر؛ نتيجة عوامل نحوية وصرفية ولغوية وبلاغية، مستعيناً بما تفرَّق في كتب التفسير، وتناثر في أمهات اللغة والبلاغة. وكنت عزمت على إحصائها ودرسها آية آية، غير أني كلما تدبَّرت في كتاب الله، وبحثت فيما كتبه المفسرون وعلماء اللغة والبيان خرجت بجديد، حتى اجتمع لديَّ مادة جدُّ وافرة، تنوء رسالة واحدة بحملها، فآثرت العدول إلى مناقشة نماذج منها تحقق الغاية وتفي بالغرض.

وقد رتبت تلك القصاصات وصنفتها وفق عناوين الفصول وما تفرع عنها من أقسام ومباحث، وعرضت الآيات المختارة ومناقشتها تحت كل عنوان مرتبة وفق ترتيب المصحف سورة سورة، وآية آية، استعرضت في كل مثال بعض أقوال العلماء، فناقشت ورجحت، ووافقت وخالفت، والتمست الدليل ما استطعت إلى ذلك سبيلاً.

ولم يخلُ البحث من صعوبات كان أشدها على النفس الخوف من الزلل في كتاب الله، إن في تفسير آية، وإن في إطلاق حكم أو ترجيح مرجوح.

وإن كان بعض الباحثين يعانون من قلة المادة العلمية لأبحاثهم، فقد عانيت من وفرتها، وجعلتني أحار حين أختار، فكل كلام الله بليغ معجز، وكنت أتردد طويلاً فيما آخذ وما أدع، وكثيراً ما كنت أختار على غير أساس، اللهم إلا أن يكون كثرة النماذج المدروسة في سورة دون سورة.

ولعل أبرز ما يميز هذا البحث جمعه مادة وافرة في موضوعه، متناثرة في مصادرها، لَمَّ شملها، وقيَّد شاردها، وردَّ قاصيها إلى دانيها، ثم رتبها في عناوين كبرى وصغرى، ثم حلّل وناقش، وأخذ هذا وردّ ذاك، واستعان بالشاهد والدليل لترجيح قول على قول، وموافقة رأي دون آخر.

واقتضت طبيعة البحث ومادته أن يكون في تمهيد وأربعة فصول وخاتمة.

بحثت في التمهيد مفهوم الاتساع في كتب التراث؛ فبدأت بمعناه اللغوي وأصل اشتقاقه في المعاجم، ثم تتبعت دلالته عند علماء القراءات القرآنية، وفي علوم العربية من نحو وصرف ولغة وبلاغة. وفي نهاية المطاف بعد أن رأيت اختلاف العلماء في فهم الاتساع وتعريفه حتى في الفن الواحد، بيَّنت مفهوم الاتساع الذي أردته لهذا البحث؛ ليكون أساساً تبنى عليه الدراسة.

وجدير بالذكر هنا أن أشير إلى أن الخطاب الذي أعنيه في العنوان إنما هو النصُّ القرآني لا غير.

وتناولت في الفصل الأول الأسباب النحوية التي تجعل الخطاب يحتمل عدة معانٍ مجتمعة أو متفرقة؛ فوجدتها في سبع مسائل: اختلاف تعليق أشباه الجمل، واختلاف الإعراب، واختلاف عائد الضمير، واكتساب المضاف التذكير والتأنيث من المضاف إليه، والجمع بين الفعل واسم مصدره، واحتمال الوصف والاستئناف، واختلاف المتكلم.

وناقشت في الفصل الثاني الأسباب الصرفية لاتساع الدلالة في الخطاب، وكانت في خمس مسائل: دلالة الوزن الصرفي على عدد من الصيغ الصرفية، ودلالته كذلك على صيغة صرفية ومعنى معجمي، وتعدد معاني الصيغة الصرفية، ودلالة الصيغة الصرفية على معنيين من جذر

واحد، ودلالة صيغة الفعل على زمنين مختلفين، أو على فعل لازم وآخر متعد.

وخصصت الفصل الرابع للأسباب اللغوية، وجعلته في قسمين:

الأول منهما لحروف المعاني التي تعددت دلالتها في الخطاب القرآني، وقد رتبتها من الهمزة إلى الواو.

والثاني جعلته لتعدد دلالة الألفاظ من أسماء وأفعال، ووجدت اتساع الدلالة فيها يعود إلى ثلاثة عوامل، هي: دلالة اللفظ على معنيين من جذر واحد، أو من جذرين مختلفين، أو معنيين أحدهما يُحمل على الحقيقة والآخر على المجاز.

ودرست في الفصل الرابع الأسباب البلاغية المؤدِّية إلى اتساع الدلالة، وصنفتها في سبعة أسباب، هي: التضمين، والحذف، والاستخدام، والتقديم والتأخير، والإخبار بالعام عن الخاص، واحتمال الإنشاء والخبر، ودلالة اللفظ على معنيين مجازيين.

ثم كانت الخاتمة لخصت فيها ما ورد مفصَّلاً في تضاعيف هذه الرسالة وفصولها.

وما من شك في أن البحث في كتاب الله ولغته يعتمد على الكثير من أمهات كتب التفسير وعلوم العربية، وهذا ما كان، فقد بُني هذا البحث على مصادر أساسية في التفسير، كالبحر المحيط لأبي حيان، والتفسير الكبير للفخر الرازي، وروح المعاني للألوسي، والتحرير والتنوير لابن عاشور، وتفسير الزمخشري، والبيضاوي، والشوكاني، وابن عطية، وغيرهم. وأما مصادر علوم العربية فكثيرة أيضاً، يتصدرها معجم لسان العرب لابن منظور، وتاج العروس للزبيدي، ومقاييس اللغة لابن فارس، والمفردات للأصفهاني، وكتاب سيبويه، ومغني اللبيب لابن هشام،

والخصائص لابن جني، والمثل السائر لابن الأثير، وإعجاز القرآن للباقلاني، ودلائل الإعجاز للجرجاني، وخزانة الأدب للبغدادي، والتبيان في إعراب القرآن للعكبري، وغيرها مما هو مفصَّل في قائمة المصادر والمراجع.

وأخيراً يبقى الاعتراف بالفضل لأهل الفضل، وردُّ الجميل لأهله وذويه، فأتقدَّم بالشكر الجزيل لأستاذي الفاضل الأستاذ الدكتور سعيد الأيوبي الذي كان خير مشجع ومتابع، لم يأل جهداً في النصح والإرشاد، وتوجيه البحث وتقويمه حتى استوى على سوقه، فجزاه الله عني خير الجزاء.

وفي الختام أقول لو أني أستقبل من أمري ما استدبرت لغيَّرت وبدَّلت، وحذفت وأضفت، ولكنه القصور البشري، الذي لا يفتأ يتطلع إلى الكمال ولا يبلغه، فقد أبى الله أن يتمَّ غيرُ كتابه، وأن يكملَ غيرُ بيانه، فإن أحسنت فبتوفيق منه سبحانه، وإن أسأت فبنقص مني وتقصير، أدعو الله أن يتقبَّل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن يجعله من العلم النافع لقارئه في حياته، ولكاتبه بعد مماته، والحمد لله ربِّ العالمين أولاً وآخراً.

﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ٣٧/ ١٨٠-١٨٢].

الشارقة ٢٠٠٦/١٠/٣ محمَّد نور الدِّين المنجِّد